الفصل الرابع والعشرون

المتآمرون يخرجون

حين دخلت سيارة اللاندروفر الرمادية سجن المزة كان ثلاثـة مـن السجناء في المؤامرة الأميركية - البريطانية يغادرون السجن متهللـين. والتقى أحمد بهم وعرفهم. كان يحضر بانتظام تلك المحاكمات العلنيـة التي تفضح المؤامرات المتتالية على سوريا لجرها الى التبعية الامبريالية وإحلال الإستعمار الجديد فيها مكان القديم الذي طردته منذ اثني عـشر عاما.. وكان أولئك الرجال الذين وقفوا أمام الجماهير ذات يوم مـدانين صاغرين, يقهقهون في مرح وهم يغادرون السجن مبتهجين، بينما يدخله سجين تقدمي آخر مكبل بالأغلال.

لقد أمضى أحمد أياما ثلاثة لما عانى من ضروب الضغط النفـسي. قيد الى قبو للمباحث في بناء يطل على نهر بردى، وحين دخـل البنـاء وجد مجموعة من الصبية دون سن الكفـاءة ينتظـرون مكافـآتهم مـن المباحث.. قال أحمد في نفسه "أهناك جريمة تعادل فـي بـشاعتها هـذه الجريمة في إفساد ضمائر حتى الصغار؟!

كان في استقباله المقدم حميد.. قال برقة جعلت أحمد ينتفض كأنمـا لسعته أفعى:

-أنا آسف لما جرى.. صدقني حاولت إنقـاذك ولكـن المخـابرات المصرية علمت بالأمر و..

-لاداعي لأي اعتذار، ليكشف كل منا أوراقه دون مواربة فماذا تريد مني بالضبط.

-أنت تأبى الاّ أن يتنافر الود بيننا، ولكنني حين أنظر في أعمـاقي لاأجد لك الاّ الحب والاحترام.

-ان هذا الحب والإحترام هو نفسه يدفعك للوشـاية بـي وتـسليمي للمباحث وقيادتي للسجن.. ولست أدري الى أين يقودك بعدها..

-صدقني لو كان الأمر بيدي...

لا مجال للعواطف في السياسة. كان أحمد يعلم أن المقـدم حميـد لا ينقصه الذكاء الحدسي ليدرك نوع الصراع بينهما، ولكن كـان ينقـصه العمق الثقافي ومتانة الأخلاق، بالإضافة الى شبق ليكون بارزا مشهورا.. كان يدفع بنفسه من دكتاتور الى آخر طلبا للقوة.. وحين لم يـر النـصر العاجل المحتمل للقوى الوطنية في البلاد، مال بكل قواه الى مصر حتى قبل إعلان الوحدة. وجد مكانه في العهد الجديد ووجـد مجـالا واسـعا لإبراز مواهبه الكامنة.. تلك المواهب التي لاتزدهـر الا فـي فوضـى العلاقات.. أما أحمد فلا يستطيع العمل بدون مؤسسات صناعية ومخابر وتقدم علمي وتقني. وحين افتقد هذه الأمور في بلـده سـعى لإيجادهـا بانتمائه الى حركة تحقق التطور لنفسه وأمته، وقرن وجـوده بمـصير التطور في أمة كان من سوء حظها أن جعلها الجهلة مزرعة لتجاربهم.

-سيان عندي أكان الأمر بيدك أم بيد عمرو.

-أنت لاتثق بي وتبخس ما أقوم به من جهود لتطوير البلـد. حققنـا وحدة وسنقوم بإصلاح زراعي عن قريب. لماذا تبقى خـارج الـدائرة النشيطة الفعالة؟ وحدها تخدم طموحك.

-أنت تعلم أنني قفزت فوق هوة سحيقة لأتعلق بالأمل الوحيد الـذي أرى فيه الحياة لأمتي. لن تستطيع أبدا أن تغير قناعتي، بأن دربكم ليس هو الذي أجد فيه الخلاص. ان ألوف المؤسسات في العالم الرأسمالي كان يمكنها أن تستوعبني وتمتص خبرتي، لو كان طموحي من الضآلة بحيث لاأفكر الا بذاتي. انني أرفض أن أسمح للمستغلين أن يسرقوا دماغي كما

ينهبون ثروات أمتي. أنا لهذه الأرض، اما أن أحولها الـى خـصب أو تحولني الى تراب!.

-انني أحزن من أجلك ياأحمد. انني أعـرفهم أكثـر منـك هـؤلاء الإشتراكيين وأعرف إنتهازيتهم. لايقلون جشعا عن غيرهم.

-أنا لايهمني الأفراد. انني رجل علم أبحث عن تحقيق ذاتي.

-أتحب أن أجد لك في إحدى المؤسسات في مصر عملا مناسبا؟

-كان هذا ممكنا قبل اليوم، يوم عدت لأجد الحقيقة الرهيبة أن هناك كادرا مثقفا يتكون قبل وجود مؤسسات تستفيد من خبرتـه. كـان مـن الممكن أن يحل مثل هذا العمل أزمتي، حين كانت رؤياي غائمة، ولكنني خرجت من أزمتي برؤيا جديدة للعالم. عرفت أمورا كثيرة كانت تبدو لي منفصلة فاذا بها جميعها مترابطة!.

-لايجب أن نختلف. الطريق طويل وشائك ونحن نسير فـي اتجـاه التطور.

-أما أن الطريق طويل وشائك فهذا حق، وأما عن سيركم في طريق التطور، فأنت أول من يعرف أن هذا ليس بحق.

كان المقدم دائما يشعر بالدونية تجاه أحمد، فهـو ضـابط وثقافتـه لاتتجاوز ثقافة بكالوريا لم يحصل عليها الاّ بصعوبة، أمـا أحمـد فهـو خريج السوربون الشهيرة في العالم بثقافتها الممتازة.

-ولكن كيف تحكم هكذا على خطواتنا؟ سترى أننا سنحقق الإصلاح الزراعي عن قريب. سترى ما يسرك.

-رأيت مايسرني ويسر كل تقدمي حتى الآن!.

كانت لهجته ساخرة، ولكن المقدم استمر كأنما لم يلاحظهـا. كـان يستمتع أنه في موقع متميز يجعله قاضيا على أحمد.

-كيف نعبر لك عن حسن نوايانا؟

-حسن النوايا تظهر دون تعبير، لابالقفز فوق القوانين التي تجعل أي مجتمع مجتمعا حضاريا.

كان المقدم يرزه، يريد أن يحيط به بطريقة مـا، يريـد أن يعـرف مكامن ضعفه. وكان يعود دوما من الحوار معه في خيبة ومرارة، وينتابه الشعور بالعجز فيرغب في الحطّ من قدره.

-من تمثل أنت ياأحمد في هذا المجتمع؟ ندرة من المثقفين! قد تكون على حق، قد تكون ثقافتك عالية وأفكارك نيرة، ولكن مالفائدة مـن كـل هذا؟ أن تكون أستاذا دون طلاب أو قائـدا دون جـيش أو زعيمـا دون جمهور؟

-أولا أنا لست ندرة بين المثقفين، ألوف منا يقومون اليوم بأعمـال هي غير اختصاصاتهم أو دونها في النوعية. والمثقف الحقيقي في هـذا البلد ليس أمامه الا أحد طريقين: اما أن يحمل ويتبنى طمـوح أمتـه، أو يبيع نفسه عن روية للعمالة والتبعية وتكريس التخلف في بلده. ليس لديه طريق وسط. أما طريق الشعوذة فله جمهوره من الصنف الثاني والثالث والعاشر من المثقفين.

-نحن نرفض النظريات المستوردة. الشعب يرفضها.

-أتركوا الناس تتحاور فيما يصلح لها أو لا يصلح. ليس من أحـد بقادر أن يملك الحقيقة، فلا تنصبوا أنفسكم أوصياء على الشعب!.

-بلادنا لايصلح له الاّ الكرباج. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي يفهمها. تتكلمون باسم طبقة لم تتشكل بعد في البلاد فمن يسمع لكم؟

-ان دور المثقف الحقيقي، أعني الذي يؤمن بمبادئه ولا يتخذها فقط للتزين بها أن يوجد هذه الطبقة. لايمكن للمثقف أن يزدهر علـى إنتـاج

فلاح يستعمل أدوات من عهد العبودية. العلماء والفنانون والأدباء لايمكن لهم أن يترعرعوا وينشروا فروعهم دون قاعدة إنتاج صناعيٍ. مجتمـع الوسطاء والتجار والمهـربين لايمكـن لـه أن يفـرز الاّ المجـرمين والمنحرفين والبغايا والثوار المزيفين. أنا لاأفكر فـي نفـسي وحـدها، لايهمني مصيري كفرد، ولكنني أفكر في الأجيال المقبلة، في إبني وإبنك وأبناء الوطن بأسره ماذا يفعلون؟ أي عمل سيقومون به؟ ألا تـرى أن ظروفهم ستكون أعسر من ظروفنا؟ هؤلاء الذين يتخرجون هل تـستطيع أن تجد لهم الأماكن الشاغرة أو المؤسسات التي تستوعبهم؟ هؤلاء الذين يعجزون عن استكمال دراستهم ماذا يفعلون؟ أية مجـالات تفـتح لهـم؟ أيتعطلون أو يصبحون أجراء عند الدكنجية والحرفيين؟ كيف تحل مشكلة الطبقة المثقفة التي تنمو يوما بعد يوم وتتناحر على الوظائف الاّ بالتقـدم الصناعي الذي يستوعبهم؟ ان كل من يفكر بالمستقبل بحسن نية وبـدون غلبة مصلحة ذاتية يصل الى هذه النتيجة. ليس هنـاك مـن نظريـات مستوردة. الحاجة تخلق النظريات. أنا لست وحدي الذي أتلمس الأفضل لبلادي ولا يمكنك أن تقنعني بأنني وحدي.

-المشكلة نراها كلنا ولذلك سنقوم بالإصلاح الزراعي. لقـد عـانى الفلاح طويلا من ظلم الإقطاع وحق له أن يتخلص من الكابوس الذي جثم على صدره قرونا طويلة.

-التخلص من الإقطاع حق تأخرنا ثماني قرون عن الأمم المتقدمـة في اقتلاع جذوره.

-أترى أننا نسير في طريق التقدم خطوة بعد أخرى، وأنكم تجانبون الحق حين تنتقدوننا وتثيرون الشك حولنا؟

-ان من يسعى لتحقيق إصلاح زراعي لايـأتي بوجـوه الإقطـاع ويسلمهم المناصب العليا في الدولة، ويفرغ الجيش من التقدميين ويستبقي فيه أبناء الإقطاع.

-اننا نضحك عليهم، فاذا ما حققنا هدفنا، جئنا الى الحكم بـالمثقفين الثوريين وأبناء الفلاحين والطبقة الشعبية. بل اننا بدأنا بمثل هذه الخطوة واتصلنا بعديدين منهم، فما رأيك أن تنضم الينا في الإتحـاد الإشـتراكي فنرسلك سفيرا الى إحدى الدول الاشتراكية؟

-تتحدث كأنما مقاليد الأمور كلها بين يديك.

-عبد الناصر لايرفض لي طلبا.

-أتراك بمثل هذه الإشتراكية التي ترضى عنها أميركا أقنعت بـشير وحولته من محام تقدمي شريف الى انتهازي مرتـزق يتـاجر بـرخص الإستيراد ويملك ذلك الحق لتجاوز كل القوانين؟

-من قال لك هذا؟

-حين أرسلت مباحثك للقبض علي كان بشير فـي الجمـرك يقـود عملية الشاحنات التي يكلف مرورها خمسا وعشرين ألفا، فتمـر باذنـك دون ضرائب.

-من قال لك هذا؟

-انني كغيري أعرف الحقائق الكثيرة التي تظن أن الناس لا يرونها.

-هذه إشاعات مغرضة يتناقلها الشيوعيون وأنا لاأبالي بها.

-أريد أن أعرف من أنت. قدم في الشرق وقدم في الغرب، مرة مع الدكتاتوريات ومرة تتحدث باسم الشعب، قبل الوحدة تسير خافق النعـل، وبعدها تتحول الى ميداس لايلمس شيئا الاّ حوله الى ذهب؟ وتظهر آثار النعم المفاجئة على كل من يقترب منك؟ أية مؤهلات تملك فتوزع علـى

الناس المصائر؟ كنا معا في البكالوريا. لم تكن هناك مادة لست فيها على شفا الهاوية. أذكر يوم الإمتحان أنني كنت في المجموعة التي دخلت معها لامتحان التاريخ الشفهي. سألك الأستاذ "تحدث عن بسمارك" من الذي لا يعرف بسمارك؟ ارتبكت وتفصد العرق من جبينك، والتفت تستنجد بمـن حولك فلم ينجدك الاّ ذلك السؤال الذي طرحته وأضحكنا جميعا "سـيدي فقط أخبرني أهو رجل أم مدينة أم نهر!" دخلت الجيش لأنك عدو للدرس وسرعان ما ناصرت كل الدكتاتوريات التي حكمت فـي سـوريا، مـن انقلاب الزعيم الى الحناوي الى الشيشكلي، ثم لحقت بموكب التقدم فـي سوريا فلمع اسمك، ثم ارتميت في أحضان عبد الناصـر وأخـذت فـي ملاحقة التقدميين.

-ستندم على ماتقول!

-أنا لاأندم. انني إنسان منسجم مع نفسي. قد تظن نفسك أقوى مني. ولكن هيهات. انني قوي بشرفي، قوي بطموح أمة تريد أن تتخلص مـن جيوش الجراد التي تلتهم خصبها، قوي بالثورة في قلوب الشرفاء علـى الفوضى والإعوجاج، قوي بالجيل الجديد الذي يريد الحرية والخـلاص من التبعية والتخلف، ولا تقدمون له الا الفقر والأوهام.

ولم يرفع المقدم رأسه.. كان يعبث بالقلم ويبتسم بغمـوض دون أن يرفع عينيه لتلتقيا بعيني أحمد الصريحتين، وقال بلهجة مهددة:

-سنرى ان كنت قويا حقا. لقد تخاذل قبلك كثيرون ظنـوا أنفـسهم أقوياء!.

-لم يكن السوط يوما وسيلة إقناع. هذا ما تملكه وتهددني به، فـاذا خطر لك أن تجربه معي فكن واثقا أنك ستجعلني أكثـر تحـديا. انـنـي إنسان لا أنكر بأن للسوط لذع قد لايحتمله جسدي ولا تحتمله كرامتـي،

ولكن ثق أنك لن تحملني به على أن أغير قناعاتي. قد تدفعني للموت فأنا لاأعرف المدى الذي ستصل اليه، ولكن تـذكر أن رائحـة دم المـسيح قوضت امبراطورية.

-أحمد أنا أفكر في مصلحتك، أحاول إنقاذك لأنك كنـت صـديقي، وأعرف أنك مثالي صاب، ولكنك تحفر خنادق من الكره بيني وبينك.

-أأنا الذي أحفر خنادق الكره؟ أتريد أن أهلل لك وأصفق لأنك تجلد الأحرار؟

-أجلدهم! عملاء! كلكم ضد الوحدة العربية!

-لاتجعل الوحدة العربية غطاء تستر به بؤر الظلم والفساد والعفـن. انني أول من يعرف أنه لايمكن بناء المصانع الضخمة في قطر عربـي صغير منعزل، هذا خط الانعزاليين من عملاء أميركا: تجزئـة الـوطن العربي. وأول من يعرف أن في الأرض العربية بترولا يمكـن لـه أن ينشئ ثلاثة آلاف وخمسمائة صناعة متطورة، وأنه ملك الأمة بأسـرها. الدجل هو عدو الوحدة العربية لا الصدق والصراحة والاخلاص. والدجل هو جسر العمالة والمساومات. أتتحدث عن اتحاد إشتراكي وأنتم أول من يجلد الإشتراكيين؟ أنتم الذين طعنتم الوحدة ياقصار النظر، أما الإشتراكي الحقيقي فيعلم أن بناء الإشتراكية في قطر دون غيره من الأقطار العربية هو أشبه بامرأة تلد من الطفل أصابع يديه وتترك باقيه جنينا في رحمها.

-مالإختلاف اذن بيننا وبينك؟

-ألا ترى حتى الآن وجه الإختلاف؟

-أبدا. ان تأكد لي بأنك لاتقاوم الوحدة العربية فأنا أفرج عنك فورا، فليس ثمة خلاف بيننا. وفكر فيما قلته لك. لاتقطع معنا! قد يكون بينـنـا

سوء تفاهم ويزول. انني أعتبر كل ما تفوهت به عتابـا بـين صـديقين وأنساه.

ونظر اليه أحمد متمعنا. كان يبتسم وكأنه حقا صديق ودود. وتساءل "أيمكن للإنسان أن يبلغ ذلك المستوى العبقري من النفاق؟" ووقف المقدم ومد له يده مصافحا فتجاهلها أحمد، ولم يغضب المقدم للأمر فأردف:

-ان حديثك ممتع، انه يدفع الانسان للتأمل. ولكننـي لاأحـب تعقـد النظريات. انني رجل عملي أبدأ من الإمكانية التي بين يدي ولا أتعداها. وأعرف الناس على حقيقتهم، أطماع وشهوات. وليس فيهم الاّ نادرا رجل مبدأ، وليس ذنبي ان كانت الطريقة لإقناعهم هي في حشو أفواههم. أنـا لاأزعم القدرة على تغيير طباعهم، ولن أكسبهم بالمثاليـات. قـد أكـون أخطأت في انتهاج الأسلوب نفسه معك، فأنت كما قلت نادر الطباع، وقد تكون من النوع المعقد الذي يجد لذة في التمرد ولذة في الحرمان ولذة في التعذيب وحتى لذة في الإستشهاد..

وثار غضب أحمد، ووقف ضاما قبضتيه على الطاولة التي تفـصل بينهما:

-أهناك إنسان يجد لذة في العذاب؟ ولكن ان كـان مخـاض وعـي الجماهير لن يكون الاّ عبر هذا الألم الذي نعانيه فليس لنـا خيـار. لـن نرضخ أبدا للعنف في تغيير قناعاتنا.

-أنتم أعداء القومية العربية قبل الوحدة.

-لاتدجل بالوحدة والقومية!. عند تحليل الأمور لن تجد بأنكم أصدقاء للوحدة وأننا أعداء. يوضع في يدكم السوط لتجلدوا قوى التحرر. زهرات الشباب تتعفن في سجونكم، هم وحدهم الذين يحررون الوحدة من التبعية. أتريد أن تبهرني بسحر الأسماء؟ ما أسهل مـا تنتقلـون بـين القوميـة

والإشتراكية، لأنكم لستم قومية ولستم إشتراكية. مجرد فئة طفيلية شـبقة للقيادة ووراءها طبقة تابعة برساميلها للمستعمرين من كل لون لتوسـيع استغلالها لشعبنا بهيبة السوط.

-يجب أن تسبق الوحدة النظام الإجتماعي.

-بل يجب أن يسبق التحرير كل شيء. بدون تحرير ليست القوميـة والوحدة والإشتراكية الاّ كلمات جوفاء لامضامين لها. وأنتم منذ البدايـة رفعتم شعار انتهاء المعركة مع الإستعمار.

-الثورة قضت على الإستعمار.

-الثورة لم تبدأ بعد.

-أكل ما حدث في مصر من إنجازات رائعة لـيس ثـورة؟ طـرد الإنجليز وتأميم القناة والإصلاح الزراعي، وثـم هـذه الوحـدة التـي تحاربونها؟..

-هذه الإنجازات خدعتنا وظنناها بداية ثورة، فكان طرد الإسـتعمار القديم لصالح الإستعمار الحديث، وتأميم القناة لصالح رساميل الأميركيين، والإصلاح الزراعي لتكريس الفردية، وتوزيع الأرض على المحاسـيب، والوحدة لضرب حركة التحرر في سوريا، ومجالا لنهب برجوازية مصر لنا!.

-ان كل ما لايأتي عن طريقكم فهو مغرض، حتى هذه الوحدة التـي انتظرناها جيلا بعد جيل.

-ولهذا كان أول ماصنعتموه بالوحدة أن غدرتم بصانعها وأقلتموه من منصبه لأنكم تريدونها وحدة على مزاجكم لا من أجل التحرير.

-الفريق عفيف البزري هو الذي أخطأ..

-أنا لاأدافع عنه. ولكنني أريد أن أقول لك بأن دور البرجوازية في أن تقود وحدة الشعوب قد انتهى، مهمتها التاريخية استنفذت قواهـا منـذ قرنين. ولكن أية مقارنة! تشبهون أنفسكم ببرجوازية أوروبا التي كانـت سيدة في أرضها، سيدة عالميا، وقضت على إقطاع شاخ لمصلحتها. أمـا هنا في بلد متخلف فلا هي سيدة في أرضها، ولا هـي سـيدة عالميـا، برجوازية تابعة مهلهلة تجمع ثمار جهد الإنسان الكادح لسادتها الجـدد!. عدوة لكل مطامح الأمة، هذه هي الطبقة التي قطفت ثمار الوحدة، وهـذه قوميتها.

-القومية مفهوم لايتعلق بالبرجوازية.

-سيدي في أوروبا كانت هي الوجه السياسي للبرجوازية الـصناعية الوطنية، انها قومية رأسمالية. أما هنا فهذه الطبقة لاتقوم بدور تـاريخي بل بدور تبعي، لأنها لاتملك حتى القدرة على التحـرر. انهـا مـشلولة بمصالحها، عاجزة منهوكة تحمي نفسها بحكم المباحث.

-كل أنظمة العالم تعتمد في حكمها على المباحث.

-المباحث للعدو والجواسيس، وليست لقوى التحرر!!. انكم تلوثـون حتى الجيل الجديد. لماذا كان هذا الصف الطويل من صـبية المـدارس يقفون اليوم في باحة القبو ويقبضون الأجور؟ ما هـي المهمـات التـي توكلونها اليهم؟ التجسس على رفاقهم، على أساتذتهم؟ على آبـائهم؟ أيـة جرائم تقترفونها في تشويه نفوسهم الغضة! أتحسبون أنفـسكم مخلـدين؟ أهذه هي الثورة؟

-نعم انها ثورة. ان الجماهير الكادحة تتعاون معنا.

وضحك أحمد:

-صدقت.. جماهير المباحث الكادحة!..

-أهذه جماهيرنا؟ سامحك الله!

-لم لا، أليسوا من الجماهير؟ ألست أنت من الشعب الكادح؟ أولـيس بشير من الشعب الكادح؟ أو ليس فهد من الشعب الكـادح يـوم جـاءك لايملك على ظهره الا قميصه يطلب عملا في المباحث فوجدت فيه بغيتك وعينته على الفور؟ الناس تتحدث عن شرائه مزرعة بنصف مليون ليرة، فما هي نوع الخدمات التي قدمها هذا العبقري للثورة؟ فبرك انقلابا، وشى بثوري حر، جلده، قتله تحت التعذيب؟

-نحن لانجلد الا أعداء الثورة!.

-أعداء الثورة المزيفة هم أبطال الثورة الحقيقية، هذه هـي الثـورة التي ستنجزها فئات لها مصلحة في التحرير والوحـدة والتـصنيع فـي الوطن العربي كله، لصالح الأمة العربية كلها مهما كان انتماؤها. انهـا تصنع الوحدة والقومية المتحررة لا في ظل التبعية!.

-نحن قانعون بثورتنا وسندافع عنها بكل قوتنا.

-لكم ثورتكم، ولنا ثورتنا التي لم تبدأ بعد.

-اذن أنت مصر على عدائنا.

-لست أنا المصر. سيعاديكم الواقع الذي تـأبون رؤيتـه، سـيكذب دعواكم ويقودكم من فشل الى آخر، ومن هزيمة الى أخرى.

-آسف أن ينتهي حديثنا هكذا الى الفشل التام. أحببت أن أوفر عليك المتاعب ولكن! ومع ذلك أترك لك فرصة ثلاثة أيام لتفكر. أمـا بعـدها فالأمر يخرج من يدي، ولن أستطيع تقديم العون لك.

* * *